

## مسارات المثاقفة - دور المركزية في بناء الصورة وتأويلها -

## The acculturation paths: The role of the centralizing tendencies in building and interpreting the image

المسعود جوادي<sup>1</sup><sup>1</sup> المركز الجامعي بآفلو (الجزائر) DJOUADI.MESSAOUD@GMAIL.COM

تاريخ النشر: 2021/06/01

تاريخ القبول: 2021/05/04

تاريخ الاستلام: 2021/04/24

## ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على جانب مهم من جوانب تشكل الصورة كمبحث من المباحث التي نتجت عن تطوير مقولات مدارس الأدب المقارن، ببروز مباحث الصورولوجيا. مبحث لم يبق محصورا في ميدان بحث واحد، بل توسع وتعمق انشغالاته، لتنتقل بعدها لرحاب أوسع هو ميدان الدراسات والمقاربات الثقافية، مستفيدة من التأسيس الجديد لأبستمولوجيا الميادين البحثية و تطور توجهاتها.

تكتسي الصور المتخيلة التي تتناولها المدونات الأدبية والمنتجات الفنية التصويرية كالسينما والمسرح والرسم، أهمية بالغة في نقل مواقف الشعوب وتفاعلها فيما بينها. والصور المجسدة فنيا وخلفياتها المتخيلة التي تؤسس للمهاد الذي تقوم عليه، تدخل ضمن شبكة علائقية تدور حول العلاقات بين طرفي المعادلة الأنا / الآخر. يكمن جوهر هذه التجاذبات في سمة التمركز والتمركز التي كثيرا ما تتبدى لنا في منظومة متوارثة من الصور التي اتخذت الطابع الإيقوني، وشكلت المسكوكات لفظية، والعبارات التصويرية التنميطية. وليس بوسع أي مقارنة للخطاب المتداول عبر جميع الوسائط التعبيرية، اليوم، أن يغفل دور هذه الرؤية ذات النزعات التمركزية.

المؤلف المرسل : المسعود جوادي

**Abstract**

*This research paper aims to shed light on an important aspect of the formation of the image as a study of studies that resulted from the development of the categories of schools of comparative literature, with the emergence of studies of imagology. A research that did not remain confined to a single field of research, but expanded and deepened its preoccupations, then moved to a wider area of studies and cultural approaches, taking advantage of the new establishment of the epistemology of research fields and the development of their orientations. The imagined images dealt with in literary blogs and graphic artistic products such as cinema, theater and painting are of great importance in conveying peoples' attitudes and their interaction with one another. The artistically embodied images and their imagined backgrounds that establish the thalamus on which it is based, are part of a relational network that revolves around the relationships between the two sides of the ego / other equation. The essence of these tensions lies in the characteristic pivoting and centering that is often evident to us in an inherited system of iconic images and stereotypical expressions. And no approach to the discourse circulating through all expressive mediums today can neglect the role of this vision of centralizing tendencies.*

**Keywords:** Image, Travel literature, Centralizing tendencies, Text.

**1. مقدمة:**

يعد ميدان الصورة حقلاً خصباً استقطب اهتمام مختلف المقاربات البحثية، بل وقد تقاطعت في بحثه العلوم الإنسانية والعلوم التقنية بشكل يشير إلى تفرّد الميدان وحيويته. تكمن حيوية مبحث الصورة في أنّها شكّلت قطب الرحى للنظام التواصلّي الحديث، الذي عرف حركة متقطّعة النظير بفعل الطفرة التكنولوجية لأنظمة ووسائل التواصل وانتشارها الرهيب. يشهد عالم اليوم ما يمكن أن نسميه انفجاراً في أنظمة استخدام الصورة، بداية من الإشهاريات والسينما ورقمنة النتاج الأدبي بما يتماشى مع التنامي الذي يعرفه حقل «الميلتي ميديا». إضافة إلى هذه الجانِب من الصور التي توصف بالحقيقية، هناك صور متخيّلة

ماثلة في طيات المدونات الأدبية يستدعي الولوج لدراساتها اللجوء لمنظومات من الأسس اللغوية والنقدية والبلاغية التعبيرية. فحتى في ميدان الدراسة الأدبية نجد الصورة مدارا لحقل متعددة بتعدد وجهة النظر إلى الصور المتضمنة في النصوص الأدبية، كالبلاغة والدلالة والنقد وغيرها من الحقول. يعد ميدان الصورة حقلًا حصصا استقطب اهتمام مختلف المقاربات البحثية، بل وقد تقاطعت في بحثه العلوم الإنسانية والعلوم التقنية بشكل يشير إلى تفرد الميدان وحيويته. تكمن حيوية مبحث الصورة في أنها شكلت قطب الرحي للنظام التواصل الحديث، الذي عرف حركية منقطعة النظير بفعل الطفرة التكنولوجية لأنظمة ووسائل التواصل وانتشارها الرهيب. يشهد عالم اليوم ما يمكن أن نسميه انفجارا في أنظمة استخدام الصورة، بداية من الإشهاريات والسينما ورقمنة النتاج الأدبي بما يتماشى مع التنامي الذي يعرفه حقل «الميلتي ميديا». إضافة إلى هذه الجانب من الصور التي توصف بالحقيقية، هناك صور متخيلة ماثلة في طيات المدونات الأدبية يستدعي الولوج لدراساتها اللجوء لمنظومات من الأسس اللغوية والنقدية والبلاغية التعبيرية. فحتى في ميدان الدراسة الأدبية نجد الصورة مدارا لحقل متعددة بتعدد وجهة النظر إلى الصور المتضمنة في النصوص الأدبية، كالبلاغة والدلالة والنقد وغيرها من الحقول.

## 2. الصورة في دراسات الأدب المقارن

بدأ الاهتمام بحقل الصورة متأخرا ضمن مباحث الأدب المقارن، فلم يأخذ مكانته التي هو عليها اليوم إلا بعد تطور مقولات المقارنة الأدبية وإرسائها وانفتاحها، متجاوزة حدود حقل المقارنة التي أرسنها المدرسة الفرنسية. وقد تزامن هذا التوسع بتطور وتشعب الخلفية الاستيمولوجية المؤسسة للبحث العلمي، مستفيدة من تنامي التجربة الإنسانية عموما، وبما انجر عن انفتاح الرؤى النقدية التي أعقبت صدمة الحربين العالميتين. تؤسس التحولات التي تمر بها البشرية مهادا فكريا حاضنا لتشكيل مسارات التطور التي يعرفها البحث العلمي. وقد كانت المعطيات التاريخية هي التي شكلت سياقًا قامت ضمنه توجهات بحوث تستدعي روافد متعددة من التداخل بين حقول المعرفة.

في هذه المقارنة ستكون عنايتنا بنوع خاص من أنواع الصور، وهي التي كانت محل دراسة ضمن حقول الأدب المقارن، وقد أفرد لها باب من أبواب بحوث المقارنة، حقل الصورولوجيا كمقابل للمصطلح

الغربي «imagologie». ويهتم هذا الحقل بالصورة التي تتشكل لدى أمة من الأمم عن أمة أخرى ضمن مدوناتها الأدبية المختلفة، بما يؤسس لنظام معرفي تتفاعل من خلاله الأمم وتظهر عبر دراستها العلاقات التي تؤطر الرؤى التي يحملها الأفراد والجماعات عن ذاتها وعن غيرهم من الأمم ( سعيد، 2006، 76). وعلى الرغم من كون بدايات التأليف في حقل الأدب المقارن كان ذا طبيعة ترتبط أساسا بتصحيح الصورة المرتسمة لدى الفرنسيين عن غيرهم من الشعوب الألمانية، إلا أن أفرادا حقل الصورة بهذا المفهوم وبشكل مستقل جاء متأخرا<sup>1</sup>.

ترسم الصور المتشكلة ضمن المدونات الأدبية، في عمومها، نمطا من العلاقات التي تربط بعض الشعوب بغيرها من الأمم، وهي تعبير عن علاقات العداء والندية أو الانبهار والدونية. وتتوسل هذه الرؤى باللغة أداة للتعبير ولتنوير وتعزيز هذه المواقف. كما تستخدم سجلات لغوية متعددة منها ما يميل إلى السخرية ومنها ما يلجأ لبث خطابات العداء وإذكاء مشاعر الغيرة ورسم الصور المشوهة عن «الآخر». يتولد عن الاستخدام المتواتر للصور تعزيزها بما يجعلها تتخذ شكل القوالب النمطية الجاهزة التي تستحضر ضمن الخطابات في إطار الكنايات والاستعارات المعرّضة، وهو استخدام يشيع ضمن الخطابات السينمائية والأدبية والصحفية، إضافة إلى منظومات الفكاهات الشعبية والأدبية المدونة المتداولة. يتعلق الأمر بكتابات (مدام دوستايل) حول ملاحظاتها وشهاداتها عن الألمان، فقد كتبت فيما يمكننا تلخيصه في أنها اكتشفت رقيا و ثقافة وفنون وفلسفة كان جهل الفرنسيين، نخبهم وعمومهم، جاهلين بها.

### 3. الصور أنواع وغايات

تتضمن صورة الآخر في السينما والأدب، على حد سواء، معالم النموذج الذي تكوّنه الأمة عن نفسها وعن تراثها ومكانتها. فتصور الآخر لا يمثل إلا انعكاسا عن رؤية الذات وتأمين قيمها. وليس خافيا ما قد يعتور هذه الصور المتبناة والمرسومة للغير من تشويه ونقص، وعدم مطابقة للواقع، بل قد تكون مخالفة تماما للواقع، وذلك إما للجهل أو لتوجيه مُغرض. من قبيل هذا الخطاب يمكن أن نورد نموذج البلجيكيين في الفكاهات الفرنسية، أو نموذج البخيل في مزيكاتي بخلّاء الجاحظ. وهذا الأمر يغدو متداولاً، وعادياً، في ظل الصور المرتبطة ظاهرة «البروباغندا» التي كثيرا ما تتسم بالتسويق لصورة مشوّهة عن مجتمعات تؤسم بالغيرة حيناً أو التوحش أحيانا.

لا تقتصر المدونات والخطابات، التي نتحدث عنها، على صور الدعاية فحسب بل نجد مدونات أدبية تتنوع فيها صور الآخر، بعدة وجهات نظر، كما أنها تخدم وتُصنف ضمن أنماط متعددة من الصور. وتمكننا الدراسة المتأنية لهذه الجملة من الأنماط الوقوف على أغراض الكتاب الذين رسموا هذه المنظومة التصويرية وضمنوها في طيات مدوناتهم وأعمالهم. ولعل العامل الأساسي في اختلاف الصور يعود لأسباب ترتبط بمنظومة من الخلفيات التي توجه رؤية الأديب أو السينماتوغرافي لتبني نظام من الصور. هذا النظام يعد قوالب جاهزة أرسنها مؤسسات ثقافية واجتماعية تتجاوز هوية الفرد إلى ترسيم هوية جماعية، تخضع لأطر تعبيرية وفكرية، بل وحتى إيديولوجية.

تعبّر الصور، فيما تعبّر عنه، عن ردة فعل يديها الفرد تجاه عالم جديد يكتشفه أو يواجهه، مواجهة قد تكون تلقائية أو قسرية، حسب ظروف وملابسات سياقات اللقاء. ومما يمكن ذكره من جملة هذه المواقف، التي تتولد عن صدمة اللقاء بالآخر، إما الانبهار، أو الإقصاء والتجاهل، أو السعي للاستكشاف والدراسة ( Lüsebrink, 1996 ). وتعد هذه المواقف من أبرز السمات الدالة التي يتوسل بها لدراسة الموقف من الغير، لكونها تتم وفق ما يمكننا أن نسميه مسافة فاصلة بين الموضوع، «الآخر»، والناظر إليه، الذات المستكشفة. تؤدي هذه المسافة إلى حدوث تشويش على مستوى إدراك العالم الجديد. تتمثل المسافة الفاصلة بين الطرفين في عدة عوامل لعل أهمها اختلاف اللغة والوسط الثقافي والديني (جوادي، 2017/ 5 /30، 242 وما يليها).

من هنا تظهر أهمية البحث في الأدوات الإجرائية الكفيلة بتحقيق كفايات تفسيرية للصور المتداولة. فميدان الصور كان محل جدل متواصل، وقد حمل العديد ممن الاسقاطات التي تهدف لجدلية الفعل وردود الفعل، تميز بالتوظيف المأدج. ويتوخى البحث العلمي الكشف عن بنى الخطابات وأساقها التي تنتظم الفعل التوظيفي و القيم الدلالية دون البحث عن تصويب المواقف، وذلك بالوقوف على مسافة متساوية من التيارات المنتجة للصور.

#### 4. محورية الرؤية المركزية

نقصد بها منظومة القيم التي تعمل على بناء توجهات الفرد وتفكيره، وهي بذلك تنظم علاقاته بذاته وبمحيطه. فهي المسؤولة عن تحقق انتماء الفرد للنظام الاجتماعي المؤطر بقيم المجتمع الذي ينتمي إليه، كما تعمل على توجيه رؤاه إلى العالم بأسره. وقد تكون هي المسؤولة أيضا على مناهج اكتسابه وإدراكه لمعطيات التجربة الإنسانية. ليس خافيا أن هذا المعطى تتوزعه حقول معرفية متعددة، لكن يمكن استغلاله لدراسة تداولية الخطابات الأدبية والفنية والسينمائية لما يمكن أن يقدمه من معطيات سياقية لهذه الخطابات.

تعتبر الخلفيات العرقية، وبالتالي الثقافية والإيديولوجية والدينية مكونات أساسية للنظم التمركية، بما تقوم به من عملية توجيه لإدراك سيميائية العلامات المشاهدة ضمن عمليات فك شيفرات التعامل مع الآخر. والدليل على ذلك أن التعابير الواصفة لمعطيات العالم ولمقاربة الصور كثيرا ما تستند على خبراتها السابقة، باللجوء للمقابلات التي تتشابه مع الموضوع المقدم من الصور المعاشة في بيئة المتلقين. وهذا الأمر متوارد بكثرة في المدونات الرحلية، حيث يستعين الرحالة في وصفه وتقديمه لبعض التشبيهات التي تحيل على بيئته الأم، سواء تعلق الأمر بالمكونات المادية أو المعنوية والمتخيلة.

تعدد مظاهر التمرکز بتعدد معايير التمرکز. فقد تكون محاور التمرکز إثنية، يتم من خلالها اعتماد مؤشر الانتماء لفئة بشرية، تتشكل حوله نظم تعبيرية كالتجنيس الأدبي أدب عربي وآخر سلافي وإفريقي وأفروأمريكي، غيرها من التصنيفات العرقية التي تقابلها تقريبا نفس المسميات في حقول الفنون الأخرى. وقد تكون معايير فكرية فلسفية كالرومانسية والوجودية والواقعية. نجد من بين المعايير المعيار الديني فالأدب المسيحي والإسلامي تعتبر من أنظمة التصنيف في الحقول الأدبي والفني. ومن الجلي أن تعدد المركزيات أمر يصعب حصره في عجالة ويضيق عنه مجال الورقة.

من الملاحظ أن نظم التمرکز يتبعها نظام دلالي سيميائي، وبالتالي يستوجب البحث في الخطابات بحث النظم المؤطرة لهذه الخطابات والروافد التي تنهل منها مادتها ومنظورها للعالم. تتيح لنا معرفة الأبعاد المتعددة للسياق معرفة أكبر بمضامين الخطابات وتسهل إدراك مقصدية هذه الخطابات ومؤشراتها الحاثية لتداولها. كما لا يخفى علينا الدور المحوري للسياق في عمليات التواصل، وما القراءة إلا نظام من أنظمة

التواصل. وهكذا تكون الرؤية المركزية التي يصدر عنها صاحب الخطاب مهمة في شقي الدلالة ومستوياتها، دلالة صاحب الخطاب ودلالة المؤول.

تتميز الصور النمطية التي تبنى على أسس التمرکز بكونها صورا اختزالية، تتصف بالعموم وغياب الجزئيات التفصيلية. فهي بهذا تعنى بالسمة المستهدفة بقصد التعميم ليم تداولها وانتشارها في المخيال الجمعي للأمم، وتتوثق من خلال هذه العملية على أنها وسم يتصف بالثبات والجاهزية. والأمثلة كثيرة عن الصور التي توسم بها المجموعات البشرية، فمن باب الفكاهة نجد الإيطالي ميالا للكسل والإيرلندي يوصف بالحرص والبخل، وفي المقابل الصيني أو الياباني رجل عالم ومحب للعمل. فهذه الصور لا تعكس حقيقة الواقع، فالشعوب الموصوفة بهذه الصفات تعد استثناءات كثرة لهذه القوالب بين أفرادها.

## 5. رحلة «ابن فضلان»: تقديم المدونة.

سنعرض في هذا الجزء لواحد من الرحلات العربية التي اتخذت مكانة محورية في المدونة العربية وفي المصادر المعرفية الغربية على حد السواء. حفل الدراسات الأدبية العربية و الغربية بهذه المدونة، أو ما أمكن العثور عليه من نتف ومقاطع للرسالة التي كتبها «ابن فضلان» في ختام رحلته السفارية التي قادته لبلاد الشمال، والتي تعرف حاليا بالبلدان الاسكندنافية. قادت رحالتنا بعثته الدبلوماسية لزيارة أقاصي العالم شمالا في عصره بحيث وصل جغرافيا الدائرة القطبية المتجمدة شمالا، سفيرا للمقتدر، الخليفة العباسي. استمرت الرحلة ذهابا من بغداد إلى مملكة الصقالبه وعاصمتها البلغار على نهر الفولغا حوالي العام، بين عامي 309 و 310 هجري ما يوافق 921 و 922 للميلاد. وتعد هذه الرسالة التي عبرت عن تجربة رحلية متفردة تضمنت صورا عن مجتمعات لم يكن لدى الباحثين من مصادر موثوقة حول بعض عاداتها ومعتقدات من أثر مكتوب غير ما كتب «ابن فضلان». لهذه الأسباب تمت دراسة الرسالة في الدوائر الغربية باهتمام كبير (كراتشوفسكي، ص 186).

تحتل هذه الرحلة مكانة مهمة في دراسات أدب الرحلة، لاعتبارها من أوائل الرحلات العربية القديمة التي أثرت المدونة العربية. وتعود أهمية العمل أدبيا لما تضمنه من وصف للشعوب القاطنة خارج دائرة المناطق المتعارف عليها، ولغربة العادات التي شكلت صدمة للرحالة أولا وللمجموع المتلقين العرب، قديما

وحديثا. وعلى عادة مؤلفي أدب الرحلة فالرسالة تقدم وصفا لمسارات الترحال، وصور حياة الشعوب التي التقاها الرحالة والأماكن التي زارها.

تمتد الطريق التي سلكها «ابن فضلان» من بغداد، عاصمة دار الإسلام، إلى بلاد الترك والروس والصقالبة. يعطي المسار الرحلة مدى يمر بمناطق متعددة تتناوبها مناطق المسالمة والمنطق المعادية، التي يصطلح على تسميتها بدار الحرب. ولم يتوقف «ابن فضلان» عند حدود مملكة البلغار على ضفاف نهر الفولغا الشهير بل تجاوزها لبلاد أخرى لشعوب مختلفة، مما أثرى الرحلة وجعلها مصدرا مهما للكتابات الجغرافية، من أهم من نقل مقاطع منها واستشهد بها «ياقوت الحموي» في معجم البلدان.

يعثر القارئ عن نسخ متعددة لهذه الرحلة، فعربيا تعد رسالة ابن فضلان التي نشرت في العالم العربي بتحقيق «سامي الدهان» من أبرز النسخ في العالم العربي، وقد قدم لها بمقدمة مهمة في معرفة تاريخية وأهمية الرسالة ومشاق تحقيقها. وقد أثرت رحلة «ابن فضلان» في العديد من الكتابات والمدونات. فالجغرافيون كان تأثرهم وأخذهم مادتهم عنها، أما طبعيا. لكن تأثير هذا الأثر التراثي العربي تجاوز مجال البحث الجغرافي إلى المجال الأدبي وغيره من الفنون، وتجاوز الحيز العربي إلى مدونات الغرب. ألهمت الرحلة الكتاب غريبا ومن أشهر المؤلفات التي ذاع صيتها في بلاد الغرب نجد عملا أدبيا أنتجه الأمريكي «مايكل كريشتون، أو كرايتون Michael Crichton»، في شكل رواية ناسبا إياها لمصادر نقلت نص رسالة «ابن فضلان». اتخذت رواية رحلة ابن فضلان الطابع الملحمي، واستعانت بالسرد المشوق الذي تتناص في ثناياه الكثير من المرويات والأعمال الأدبية لمختلف الشعوب، كما أن مضمون الرواية وسم بعنوان مشوق، حسب مقتضيات الجنس الأدب الذي انتمى إليه، فجاء بعنوان «أكلة الموتى Eaters of the Dead» وذيل بعنوان فرعي ينص أن الرواية هي مخطوطة ابن فضلان التي تروي تجربته مع سكان الشمال في 922 للميلاد، كما عُنوانت الرواية بـ «المحارب الثالث عشر The 13th Warrior»، في إصدار لاحق. وهذا العمل كان أساس إنتاج سينمائي لسنة 1999، بنفس العنوان الجديد «المحارب الثالث عشر The 13th Warrior»، بطولة «أنطونيو بانديراس» وإنتاج «جون ماك تيرنان John McTiernan»، فيلم مغامرات وإثارة تدور أحداثه في بلاد الشمال. تتباين مضامين النصوص والخطابات بين النسخ تبانيا يعزى لعدة أسباب فكرية إيديولوجية و تقنية تفرضها الأجناس الأدبية و الفنية، يدخل بعضها ضمن

مباحث الدراسات المختلفة. تحاول هذه الورقة تلمس جانب من الجوانب المتعلقة بمبحث المقارنة و التحليل التي تتوخى تسليط الضوء على الأنساق الموجهة للخطاب المصور للآخر والمقدم لنظامه الثقافي.

## 6. التدوين وسبل التمركز

على الرغم من كون البعثة المتجهة لبلاد الصقالبة كانت ذات بعد دبلوماسي، وكون الاختيار قد وقع على «ابن فضلان» لم يقع لدوافع السياسة وإنما كان نزولا عند حاجة البعثة لمن يعلم الشعوب المستهدفة بأمر الدين وكيفيات العبادة. وقد أدت عملية التدوين التي قام بها ابن فضلان على اكسابه محورية سردية وبالتالي مركزية للتبئير فحن لا نرى العالم المحتمل للسرد الوارد في الرحلة إلا من خلال منظوره. وهذه الخصيصة السردية لأدب الرحلة تجعل ذوات السارد والشخصية تتطابقان لتتماهى مع سرود السيرة الذاتية التي تتسم بالتعبير عن الرؤى الخاصة بالسارد وبالتالي تتحكم في تقديم العالم الموصوف.

يتحكم منظور السارد في المسافة التي تقوم بين الموضوع الموصوف والسارد من خلال تجسيد تجربة الرحالة. وتتعلم المسافة بعمق الاختلاف اللغوي والفارق بين الخلفيات التي يصدر عنها الرحالة وممارسات الشعوب التي يقدم صورها. لا يتوقف أثر التمركز عند الظواهر والممارسات البشرية والعادات وطقوس العبادة والمعتقدات، بل سيؤثر على تصوير الفضاء المكاني ومكوناته. يمكن أن نضيف ملاحظة أوردها «سامي الدهان» حول التركيبة اللغوية للأعضاء الأساسيين في الوفد، فهم يشكلون حول هذا المعيار من الصقلابي «باريس»، ومن الروسي «سوسن» و«تكين» التركي، إضافة إلى «ابن فضلان» العربي، مع ميزة جهله بباقي اللغات الأجنبية.

يوجه السارد في رسالة ابن فضلان حركية السرد ومنظوره بشكل يختزل به المسافات في الحيز الذي افترض فيه، محكوما بالراهن الزمني وسياقاته، علم المتلقي بالجغرافيا فينقلنا عبر سلسلة من أسماء المواضع والمدن التي تنتمي لدائرة بلاد الإسلام، في حركة سريعة لا تتوقف إلا عندما توقف الركب لانتظار من سيلتحق بالقافلة عند مدينة «بخارى». كما لم يقدم لنا الرحالة الكثير من الأحداث في هذا الجزء إلا ما تعلق منها ببعض الحوادث البسيطة حول عمليات من الكيد السياسي من بعض الأطراف للحصول أو

الحفاظ على المكاسب المادية. وتعتبر «الجرجانية» معلما مهما في بداية معاناة الرحلة خصوصا بتجمد مياه نهر «جیحون».

يغلب على السرد استعمال ضمير المتكلم «أنا»، وهي ميزة من ميزات أدب الرحلة وليس في تعابير الرحالة الدبلوماسيين، الذين يستخدمون ضمير الجمع. تغدو أحكام الرحالة، في نص النسخة العربية، أحكاما يغلب عليها البعد العقائدي المعزز للمكانة التي تمثلها الخلافة ومقوماتها الدينية والعرقية. يغلب على الصور الواردة في وصف الشعوب طابع السخرية الكاريكاتيرية، من ذلك وصفه للغات بعض الشعوب بشبهها بأصوات الحيوان. وحينا آخر نجد الرحالة يستهجن بعض معتقدات الشعوب الوثنية وعاداتهم، فبعضهم لتركهم النظافة يصوّرون على أنهم «ليس بينهم وبين الماء عمل» (ابن فضلان ، 1959، 92) وبعضهم يرون أن من أراد أن يغتسل يغرم لقولهم «هذا يريد أن يسحرنا لأنه تفرس [نظر وتأمل] في الماء» (ابن فضلان ، 1959، 94). ولم تنج مظاهر الآخر في الملابس من الملاحظة الساخرة، فالأتراك حليقو اللحى لدرجة أن المسن منهم إذا حلق بعض لحيته تاركا منها ما تحت ذقنه وعليه لباس به شع، لشدة برد البلد، لصار شبيها في منظره بالنيس (ابن فضلان ، 1959، 100-101).

وقدمت ظواهر الطبيعة بما يخدم طرافة صدمة اللقاء، فقد كان الشتاء مختلفا بكل المعايير يجسده القول: «فرأينا بلدا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، [...] وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه وأراد برّه قال له: (تعال إليّ حتى نتحدث فإن عندي نارا طيبة).» (ابن فضلان ، 1959، 83). وقد أدت صدمة اكتشاف فضاء الشمال البعيد عن معهود الرحالة، العربي الناشئة، إلى ظهور أمارات الخوف الذي جعله عرضة للسخرية من قبل الشماليين. تجلّى البعد التمركزي لدى الطرفين معا، الغرباء إلى استحضار تفسيرات تستند على استدعاء عوالم العجائبية. ومن الشواهد على صور الطبيعة وتفسيراتها العجائبية، ما أورده «ابن فضلان» في قوله: «فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، وإذا تلك المهمة والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب، وإذا في أيدي الأشباح التي فيه، تشبه الناس، رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها، وإذا قطع أخرى مثلها أرى فيها أيضا رجالا وسلاحا، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة. [...] فتختلطان جميعا ساعة ثم تفترقان. فمازال الأمر كذلك ساعة من الليل ثم غابتا.» (ابن فضلان ، 1959، 123 - 124). تجسد هذه اللوحة سمة المفاجأة

والانبهار بالعالم الغريب. تعتمد رؤى المجتمع العربي الوافد ممثلاً في الرحالة ورفقته على بعد تركزه حين يلجأ كل منهم للتضرع والابتهاال، في حين ينفجر الأهالي بالسخرية من فعل أعضاء الوفد. وفي معرض إبراز ندية المركزية الإسلامية في مقابل مركزية سكان الشمال الذين يمثل موقفهم رأي الملك أن «هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم، وهم يقتتلون في كل عشية» (ابن فضلان، 1959، 124). يقف الرحالة موقف الحياد بين التصديق و الرفض لهذه التفسيرات التي قدمها الصقالبة لظاهرة الشفق القطبي، موقف أملتة سياقات الموقف بين الدبلوماسية و نزعة التفسير بما وراء الطبيعة التي يلجأ إليها الانسان حين يعجز عن تفسير ظواهر الطبيعة.

يمكننا الوقوف على الأبعاد التركزية في منظور الرحلة، في نسختها العربية، من خلال هذه الجملة من الشواهد، التي قدمت للتدليل على فكرة الرؤية المركزية والتي يسمح بها ما تتيحه الورقة البحثية. لم تقتصر الصور وتأثير الرؤية المركزية على ما دونه الرحالة بل تعداه إلى إخراج النص الرحلة. يمكن أن نعد النص الذي حققه الأستاذ «سامي الدهان» نتيجة للرؤية المركزية التي اقتضت بنسبة كبيرة على معطيات المادة التي ضمنها ياقوت الحموي في مدوناته. وقدم محقق نص النسخة العربية المبررات، الموثوقة والعلمية خصوصاً في ميدان التحقيق، وبين أسباب اهماله لما جاء في دراسات المستشرقين الذين نقلوا من مصادر مختلفة ما كتبه «ابن فضلان» عن تجربته فيما وراء حدود بلاد الصقالبة.

## 7. الرحلة نحو الشمال وصراع المركزية

تقدم لنا المصادر التي استعان بها «كرايتون» في نص روايته «أكلة الموتى» رؤية جديدة حول الرحلة الدبلوماسية، التي استحال مغامرة عجيبة وارتحال نحو المجهول. إن نسبة المصادر إلى أعمال مستشرقين من البلاد الاسكندنافية وللمستشرقين الألمان أو الدراسات المكتوبة بالألمانية، لما للمدرسة الألمانية من مصداقية علمية وأكاديمية في حقل الدراسات الاستشرافية ( سعيد، 2006، 67)، تشكل عاملاً مهماً لإعطاء المصداقية للنص وخطابه من جهة تداولية، إضافة إلى تأسيسها لتعاقدات القراءة بين القارئ والنص ودعوة القارئ للتعاون في بناء فضاء النص الرحلي. فالرحلة التي قدمت على أنها عقاب أنزل ب «ابن فضلان» اتخذ طابع الرحلة السفارية. فالرحلة تبقى محكومة بنزعة «شرقنة الشرق» التي تحدث

عنها «إدوارد سعيد» ( سعيد، 2006، 110). فنجد عوالم «ألف ليلة وليلة» حاضرة بظلالها خاصة حين أورد ذكر أسباب حقد الثري البخيل على الرحالة. فيذكر أن «ابن فضلان» الذي كان يحمل رسالة من «المقتدر»، قد دخل إلى حريم الرجل الذي طال انتظار الرسول له حين غيابه.

تشابه الرواية والرسالة المنشورة عريبا، في تقنية طي السرد في مرحلة عبور الفضاء الإسلامي، فمن بغداد إلى الجرجانية لم تتجاوز مساحة الصفحة الواحدة، لم يتعد الأمر ذكر متوالية من الأماكن. كما كان لشدة برد الجرجانية حظا من الوصف، بما يتوافق مع الرسالة. ولم يخل الوصف من الصور الكاريكاتورية خاصة ما تعلق باللباس «ارتدى كل منا معطفا وفوق ذلك المعطف وفوق ذلك المعطف معطفا وفوق ذلك المعطف قفطانا وفوق القفطان عباءة [...] فعندما كان الواحد منا يريد أن يعتلي جملة لم يكن يستطيع حراكا لكثرة ثيابه». (كرايتون، 1999، 21). ولم يترك الرحالة الفرصة دون أن يشير إلى اختلافات يسجلها مقارنة بالصور المألوفة في بيئته الأم. فبعض الشعوب كالحمر الشاردة (كرايتون، 1999، 23 و 30) أو أن من ينتف شعر لحيته أشبه بالخصي على الرغم من كونه من أقدر الفرسان وقد شهد منه براعة نادرة المثل في الرماية (كرايتون، 1999، 27).

يحافظ نص رواية «أكلة الموتى» على المسافة الفاصلة بين الرحالة والسكان المرتحل إليهم، من خلال الحفاظ على التمايز اللغوي الذي يعمق الفرق ويزيد من الغموض الذي يكتنف السرد الرحلي. يعمل الترجمان على نقل الخطاب المتبادل بين شخصيات السرد، كما يسهم في تصوير وشرح العادات والعقائد السائدة. إن الترجمة تعمل على توضيح الرؤية كما أنها حين تغيب تكشف الصورة، وتعمل على غموض مقصود خاصة بعد انخراط «ابن فضلان» في الرحلة التي انتدب إليها بعد أن ورد طلب العون من ممالك الشمال. يقع اختيار المحاربين بطريقة طقوسية عجائبية، لكن سخرية القدر يجعل من وجود الرحالة العربي في الوقت والمكان غير المناسبين، لكن الوجود كان ضروريا. ستكشف الحقائق أمام «ابن فضلان» طوال رحلته بصفته المحارب الثالث عشر بطريقة تشبه المكاشفات القدرية القاتلة. تبقى الوساطة اللغوية بين الرحالة، الذي استحال محاربا مقتزنة بلغة أجنبية ثالثة، اللاتينية، التي يتحدثها أحد الفرسان.

يتحدث نص «كرايتون» عن رحلة مغامرات يترأسها بطل أسطوري للثقافة الأوربية، يسمى «بيولف Beowulf» الذي تذكر المصادر أنه من الأبطال الأسطوريين ونبييل من نبلاء قبائل السويد، وله العديد من المغامرات العجيبة، التي يصارع فيها الوحوش الخرافية (BRAUNSTEIN).

يسافر «ابن فضلان» مع المحاربين لكنه لا يعرف وجهتهم ولا مهمة المجموعة، هذا الغموض الذي يلف الرحلة الجديدة يرجع إلى الصورة التي يحملها الرحالة العربي المسلم، وكل المسلمين، انطلاقا من منظومة ثقافية ودينية تتوجس من الآخر، وعلى وجه الخصوص تعتبر سكان بلاد الشمال غير مؤتمنين على وجه العموم (ابراهيم، 2001، 115 - 119). فالنص سيعيد تغيير مسار المهمة التي جاء من أجلها «ابن فضلان» إلى الشمال ليحاول التأسيس و ترسيخ مقومات المركزية الدينية التي تعتبر «دار السلام» محورها، إلى رحلة سيكون فيها الدبلوماسي العربي تابعا لكثيبة من المحاربين، يمثل فيها رحالتنا عنصر النشاط. أحدثت المهمة الجديدة قطيعة قاسية بين «ابن فضلان» وبيئته الثقافية، وأخلّت بمهمته الدعوية.

## 8. الشمال وصورة النمطية

من أهم الملاحظات التي استوقفت «ابن فضلان» صفة الخشونة التي وجدها في أهل الشمال، فمحمل القول فيهم «لا يجد هؤلاء الاسكندنافيون سببا للحزن في موت أي إنسان فالفقير والعبد ليس شيئا ذا بال بالنسبة إليهم، وحتى زعيمهم لا يثير أي حزن أو دموع، ففي مساء يوم جنازة الزعيم "وغلغف" أقيمت وليمة كبرى في قاعة معسكر الشماليين.» (كرايتون، 1999، 37) وتقام الولائم عندهم مرارا مع صور البذخ والهرج والمجون، بل وحتى القتل الذي لا يوقف الاحتفال. وقد لقي «المحارب الثالث عشر» صعوبة في التأقلم مع أجواء الرحلة لكنه قبول بالتجاهل في كثير من الأحيان (كرايتون، 1999، 47). وغرابة البلاد لم تتوقف عند طباع البشر بل تعدتها إلى مظاهر الطبيعة، فينبهر الرجل معلقا «وفي بعض المناطق هي من الخضرة بحيث تتألم العينان من بحر الألوان، أما في مناطقها الأخرى فهي سوداء مظلمة مرعبة.» (كرايتون، 1999، 46).

يسوق نص الرواية صورا تهدف لكسر الصور النمطية، بما يشبه التحليل النفسي، حين يعرض لنوع من الخوف الذي كثيرا ما ينتاب الأمم الوثنية من المجهول الذي لا يراد له أن يذكر. خوف صبياني المظهر

خصوصا إذا اقترن بألم الشمال الباسلة والمعروفة بالبأس والبطش. ومما عايشه «ابن فضلان» من خوف البرابرة، خوفهم من الضباب «ويعاني رجال ذلك العرق المثير لإخفاء خوفهم، حتى بين بعضهم البعض، فالمحاربون يضحكون ويمرحون كثيرا ويحاولون التظاهر غير المبرر بعاطفة الهدوء. وبهذا يبرهنون على العكس. وفي الواقع فإن محاولاتهم لإخفاء خوفهم محاولات طفولية...» (كرايتون، 1999، 39). يصل الخوف من هذا الشيء الغريب أن لا أحد يسميه فلما استفسر الرحالة عنه أجابه المترجم باضطراب «لا اسم له أستطيع أن أخبرك به» (كرايتون، 1999، 41).

تتعرز صور الآخر بفعل المنظومة التي تحكم الصور المنقولة عنه والأطر التي توجه زوايا الرؤية ففي الوقت الذي يحاول السارد تعزيز الصور النمطية، المكتسبة من خلال الوعاء الثقافي والاجتماعي، فهو يسعى من جهة ثانية إلى إيجاد التمايز في هذه الأنظمة التصويرية. فالرحالة يحاول أن يوجد لنصه معايير التميز بما يعطي جدية لصوره. ف «ابن فضلان» الذي لم يوفق في مهامه الدبلوماسية والدعوية التربوية يحاول التأسيس لمحورية تمكنه من تبرير إخفاقه بتقديم معرفة جديدة تسهم في إثراء التراث العلمي.

## 9. البعد عن المركزية وأسئلة الهوية

يصل «ابن فضلان» مملكة الصقالبة محاطا بأفراد بعثة دبلوماسية ذات مكانة معتبرة في البلاط العباسي. تكمن المفارقة أن البعثة حين تصل ملك الصقالبة تكون قد أحلت بالتزام مالي التزم به الخليفة المقنن للملك. الأمر الذي جعل الملك يقلل من مكانة الوفد، وعلى رأسهم الفقيه «ابن فضلان». يسعى الرحالة إلى إبراز المكانة المحورية، دينيا، للخليفة الذي يخشى ملك الصقالبة مع قوة جيشه وتحصين مملكته أن يدعو عليه فيتأذى بسبب ذلك، ويطلب منه المال تبركا لا حاجة. وتنتهي المهمة التي أوكلت إلى الفقيه بنوع من الفشل إذ لم يتمكن من تغيير الكثير مما درج عليه الصقالبة من عادات قد تتنافى مع تعاليم الدين، على الرغم من أنه يذكر أنه تمكن من إقناع رجل باختيار الإسلام ديناً.

يخبو وهج النزعة التمركزية شيئا فشيئا لدى «ابن فضلان». فحين ينطلق في ركب «بيولف» سيعتبر مجرد تكملة لعدة الفرسان المحاربين. مع ما تحمله دلالات الرقم ثلاثة عشر في المناخ الغربي، سيكون الرحالة عالة على المحاربين في بداية المسار. يستمر هذا البعد في توجيه سلوك الرحالة بفعل الانغماس في المهمة الشاقة إلى درجة أنه يتصرف مثل الشماليين «كنا نستيقظ في الصباح ودون وضوء أو غسل كنا

نمتطي جياندا ونستمر في السفر حتى منتصف النهار.» (كرايتون، 1999، 47). لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تفاقم ليصل إلى أكل اللحم نيئا ودون ذكاة بل يكفي بذكر «اسم الله عليه» سائلا الله العفو عنه. يُقدّم «ابن فضلان» في مراحل متقدمة تبرير إقدامه على الشرب من مشروبات الشماليين مبرا لنفسه أن مستخرج من عسل لا يحرم شربه. كانت هذه المواقف مؤشرات وذات دلالات على اندماج بقدر ما في منظومة المركزية الشمالية، خصوصا لما شارك في مهمة الدخول إلى كهف الرعد الذي تحمي به أم المتوحشين أكلة الموتى.

يبقى صراع المركزية متقدما ضمن نص الرحلة بين تصوير «ابن فضلان» لعالم الشمال الوثني، بل وسخريته من بعض الممارسات، كما يتخذ مظهر استهجان المحاربين لبعض معتقدات وسلوك الرحالة العربي. يتوج هذا التفاعل الثقافي في ختام نص رواية «أكلة الموتى» حين يودع «ابن فضلان» صديقه المحارب «هرغر»، الذي وصفه بإجادة اللاتينية، في حديثهما عن الصلاة والدعاء بالسلامة في رحلة العودة وجدال بين مسلم موحد وبين وثني. يقدم الرحالة صورة تفتح أفق التفاعل الفكري مع الآخر بقوله «كان هرغر يعلم منذ وقت طويل أنني كنت على عقيدة مختلفة عن عقيدته ولكن ما أن اقترب وقت رحيلي حتى راح يسأل مرارا وتكرارا عن معتقدي[...]» وكنت أنظر إلى أسئلته العديدة على أنها شكل من أشكال الامتحان كما امتحن بيولف معرفتي بالكتابة.» (كرايتون، 1999، 146).

تمثل البعد الثقافي، في شقه المصور للندية بين مركزيي الغرب والشرق، في ما اتسمت به صور المواجهة المبنية على المقارنة و المبادعة التهامية التي كثيرا ما تعرض لها «ابن فضلان» وسخرية رفاق الرحلة، عبر المشاهد التي عرضها الفيلم السينمائي. ومما يمكن التنويه به أن المشهد السينمائي الذي يعرض لحظة فارقة في التحول الذي عرفه المحارب الثالث عشر هو تمكنه من معرفة و اكتساب اللغة التي يتحدث بها رفاقه. تقنية ربما ألجأت الضرورة السينماتوغرافية المخرج على اللجوء إليها. غير أن تقديم هذه الحيلة كان له دلالة على اظهار نوع من الرقي والتأهيل الذي ستأخذه شخصية المحارب العربي و تؤسس لاندماجه في الجماعة الشمالية. اعتمد مخرج الفيلم على عنصر الانبهار و الانبهار الذي ظهر على المشهد،

كما أن الموضوع المطروق يعبر عن نوع من المحاكمة للقيم الغربية المتعلقة بالروابط السرية، في منظور النظام القيمي الشرقي (Michael Kreitzer, 2017).

## 10. خاتمة:

سمحت هذه الورقة البحثية بتسليط الضوء على مكون من مكونات النسق الذي تشكل الصور المتداولة في المدونات الأدبية من خلاله. وتمثل المدونة الرحلية أهم ميادين دراسة الصورة لكون الوصف يعتبر من أهم المكونات النسقية لهذا الجنس الأدبي. تمثل الرحلة وخطاباتها أهم أشكال تحليلات صور الآخر وبالتالي تصبح ميدانا خصبا لدراسة آليات التشكل ورهاناته.

يتجسد البعد المركزي في النص الأدبي، وبالتالي في النص الرحلي، من خلال مسارات التصوير ويؤثره. فالرؤية المركزية تعمل على اختزال الدلالات التي تحملها العلامات والمشاهدات بطريقة تنسجم مع الخلفية التي تشكل نظاما قيميا يسند خلفيات النص وخطاباته.

تشكل الصورة واحد من أهم رهانات التفاعل بين الشعوب وآدابها. فالخطاب هو السند الذي تنقل الصور مدلولاته وتشكل خلفياته التمركية وتمنحها سمة الدلالة و الابلاغ ضمن ثنائية البوح والإضمار. تعتبر الصور، المؤشرات الأبرز الكفيلة بتنظيم أنساق النص / الخطاب، وبالتالي توجيه القراءة التي تمكن من دراسة هذه الأنساق الثقافية و التواصلية باستخدام الأدوات الإجرائية المناسبة. وتعمل هذه الإجراءات الموضوعية على استجلاء البنى الموجهة لخطاب الصورة و صوره الممكنة.

## 11. قائمة المراجع:

- ابراهيم، عبد الله. (2001). المركزية الإسلامية صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- ابن فضلان ، (أحمد \_ بن العباس بن راشد بن حماد). (1959). رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة لبلاد الترك والخزر والروس و الصقالبة سنة 309 هـ - 921م. دمشق.
- جوادي، المسعود. (2017/ 5 /30). الرؤية المركزية دراسة مقارنة في أنساق الخطابات الرحلية العربية والغربية، رسالة دكتوراه في العلوم، قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب واللغات. ورقلة: جامعة قاصدي مرباح.

- سعيد، إدوارد. (2006). *الاستشراق المفاهيم العربية للشرق*. (ط 1). (تر: محمد. عناني). القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.
- غويار، ماريوس. (1982). *الأدب المقارن*. (ط 2). (تر: هنري. زغيب) باريس: مطبعة عويدات.
- كراتشوفسكي، اغناطيوس. (د. ت.). *تاريخ الأدب الجغرافي العربي* .. (تر: صلاح الدين عثمان. هاشم ( القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر بجامعة الدول العربية.
- كرايتون، مايكل. (1999). *أكلة الموتى عن مخطوطة ابن فضال* . (ط 2). (تر: تيسير. كامل ) . القاهرة: دار الهلال.

- BRAUNSTEIN, F. (n.d.). *BEOWULF*. Retrieved 16 / 03 / 2021, from universalis: <https://www.universalis.fr/encyclopedie>
- Lüsebrink, H.-J. (1996). La perception de l'Autre : jalons pour une critique littéraire interculturelle. *Tangence*(51), 51 - 66. Retrieved from <https://doi.org/10.7202/025904ar>
- Michael Kreitzer. (2017). The 13th Warrior (1999) Antonio Banderas, Diane Venora, Dennis Storhøi. <https://www.youtube.com/watch?v=9HYVf6Nxe54>